ظاهرة الحساب في الإسلام،من أجل سوسيولوجيا الفكر القيامي في الإسلام

عبد الكريم قدوري
جامعة الدكتور مولاي الطاهر
سعيدة، الجزائر.

مقدمة:

تحتل ظاهرة الانبعاث في حياة أخرى بعد الموت مكانة خاصة ومتميزة في الإسلام خلاف الديانات الكتابية الأخرى اليهودية والمسيحية.فإذا كانت الأولى، لا تولي اهتماما لمسألة الانبعاث إلا ما ندر وبكثير من الغموض. كصيحة النبي أعشيا" ولكن أمواتك يحيون، وتقوم أجسادهم فيا سكان التراب استيقظوا واشدوا بفرح لأن طلك هو ندى متلألئ جعلته يهطل على أرض الأشباح."[1] تفصح هذه النبوة عن انبعاث الأموات لكن لا توضح إن في هذا العالم أو في عالم آخر وفي سفر أيوب يلمح النبي أيوب إلى إمكان قيامه بعد موته " بعد أن يفنى جلدي فإني بذاتي أعاين الله.الذي أشاهده لنفسي فتنظره عيناي وليس عينا آخر"[2].

في هذا السفر تتضح مسألة الانبعاث بعد موت النبي الذي يرى بعد مماته الله ماثلا أمامه وذلك في عالم الملكوت، عالم آخر ويبقى هذا الانبعاث فرديا.ولا تفصيل في كيفيات حصوله سوى أنه النبي بعد مماته ينبعث ليرى الله أمام عينيه. في الأناجيل تأخذ مسألة القيامة بعدا آخر فلا تتوقف على نبي واحد، بل تأخذ شكلا جماعيا فمن اتبع المسيح يكتب له الخلود بعد مماته

" الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كَلاَمِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ، وَلاَ يُحَاكَمُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ، لأَنَّهُ قَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ. الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يَسْمَعُ فِيهَا الأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللهِ سَتَأْتِي بَلْ هِيَ الآنَ وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَهُ يَحْيَوْنَ. لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ لِلأَبِ حَيَاةً فِي ذَاتِهِ، فَقَدْ أَعْطَى الابْنَ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ، وَأَعْطَاهُ سُلْطَةً أَنْ يَدِينَ، لأَنَّهُ ابْنُ الإِنْسَانِ. لاَ تَتَعَجَّبُوا مِنْ هَذَا: فَسَوْفَ تَأْتِي سَاعَةٌ يَسْمَعُ فِيهَا جَمِيعُ مَنْ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا: فَالَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَخْرُجُونَ فِي الْقِيَامَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْحَيَاةِ، وَأَمَّا

الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ فَفِي الْقِيَامَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الدَّيْنُونَةِ. وَأَنَا لاَ يُمْكِنُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئاً مِنْ تِلْقَاءِ ذَاتِي، بَلْ أَحْكُمُ حَسْبَمَا أَسْمَعُ، وَحُكْمِي عَادِلٌ، لأَنِّي لاَ أَسْعَى لِتَحْقِيقِ إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَةِ الَّذِي أَرْسَلَنِي".[3]

فالخلود لا يكتب إلا على الإنسان المؤمن. ولكن القرآن الكريم يفصح عن خطاب غزير ذي طابع ترغيبي في الفوز بالجنة والتي توصف بدقة متناهية، وطابع ترهيبي للكافر الضال الذي يكون مأواه نار جهنم، والتي لا يخلو القرآن من وصف مساكنها وما يلقاه الكافر من عذاب فيها.

والسؤال الذي يطرح نفسه عند قراءتنا للآيات القرآنية هو لماذا يكررالقرآن هذا الخطاب الاسكاتولوجي القيامي بكثافة؟ وما وظيفته في المشروع الإسلامي السياسي الرامي إلى تأسيس أمّة من المؤمنين؟.

يعد الله في قرآنه المؤمنين بثواب وجنّات تجري من تحتها الأنهار وللكافرين عذاب النار.

"إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا".[4]

"ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمها على الكافرين."[5]

"مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار" [6]

"وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين."[7]

في كلامه عن العذاب الذي ينتظر الكافرين أو المؤمنين من أجر وثواب في العالم الآخر. يستعمل القرآن أسلوب الوصف الدقيق لمنازل هذا وذاك ويدخل "الحوار بينهما ليفاضل مساكن المؤمنين وكأنها واقع مشخص لتصل إلى مسامع هؤلاء وأولائك لغرض الإقناع لأن المشركين قالوا:

"وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون."[8]

فكان لابد للوحي أن يأتي بأسلوب من القوة حيث أنه يقدر على نسف هذا الاعتقاد.ويطور الخطاب القرآني ضمن هذا الخط من التفكير، مفهوم الدين في الإسلام وفق منطق تبادلي بين العبد وربه. فالله خلق كل الكون والأرض مسخرة للإنسان، وهي نعمة منه ليتمتع بها في حياته الدنيا، وبمقابل ذلك يؤدي له الطاعة." وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" [9]

وقد سمّى كل عمل يتجه إلى طاعة الله والإيمان به بالعمل الصالح وكل ممارسة تدخل ضمن هذا السياق تسمى حسنة ولكل حسنة أجر أو أكثر حسب أهمية العمل بالنسبة لما يدخل في صالح الأمة بما يرضي الله ويناسب تعاليم شريعته ويأخذ الدين في الإسلام عهدا قطعه العبد مع ربه فحياة العبد وأسباب رفاهيته من نعم في الأرض ماء، زرعا ومتاعا حتى ولو استثمر فيه الإنسان عمل هو هبة من الله وهي "دين عليه" وجب تسديده إيمانا بالله وطاعة لسلطانه المطلق على الكون والعباد.

أ-الدين لغة واصطلاحاً

الدين في اللغة العربية،مصطلح لا ينطبق إلا على الإسلام.كونه يعكس معنى اقتصاديا لعلاقة دائن بمدين.

لسان العرب يشرح كلمة دين على أنها" الجزاء والمكافأة ويوم الدين يوم الجزاء،وفي حديث سلمان أن الله ليدين الجماء من ذات القرن أي يقتص ويجزي والدين الجزاء(...) والدين الحساب ومنه قوله تعالى:ذلك الدين القيم:أي ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوي"[10]

وانطلاقا من هذا الشرح المستفيض لمفردة دين،نستخلص أن الدين الإسلامي يعكس حقيقة ممارسة وإيمان خاصين ومتميزين،عن باقي الديانات.الديانة أو الدين تعني "العلاقة"religare باللاتينية" وهو مجموع المعتقدات،المذاهب والممارسات والمؤسسات التي تؤسس علاقة الإنسان بقوة إلهية"[11] فالدين إذن بالنسبة للمسلمين، وهذا وارد في اللغة، هو الجزاء والحساب وبالنسبة للغرب هو: العلاقة.والتي تجد تعبيرها في العقيدة المسيحية في حب الله" وَاحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ فِي مَحَبَّةِ اللهِ، مُنْتَظِرِينَ رَحْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ "[12]، تقول الأناجيل. أما الإسلام بما ينطوي عليه من شرائع ووصايا يلزم عن طريقها الشخص بعبادة الله.فإنه يقيم علاقة دائن بمستدين بين الله والمؤمن

العبد.وكأن علاقة المؤمن بربه، هي علاقة اقتصادية فوجود الإنسان وحياته على الأرض نعمة من عند الله والإسلام يرفع الإنسان في أعلى الدرجات من دون المخلوقات كلها بما فيها الأقرب إليه، الملائكة. وجعله خليفة على الأرض، وصيا على مخلوقاته الأخرى. "والإسلام جاء ينظم هذه الحياة بين الناس وبينهم وبين الله"[13] لما يحمله من شرائع وضوابط أخلاقية تنظم المجتمع بمؤسسا ته والعلاقات بين أفراده. قواعد تضبط تصرفه في الأرض حتى لا يفسد فيها.

"هو الّذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور"[14]

وهناك آيات كثيرة تذكّر الإنسان بنعم الله عليه " فلينظر الإنسان إلى طعامه، إنا صببنا الماء صبا،ثم شققنا الأرض شقـــا،فأنبتنـــا فيها حبا وعنبا وقصبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا،وفاكـــهة وأبا،متاعا لكم ولأنعـــامكم"[15].وأكثر من ذلك لقد أمر الله الملائكة أن " اسجدوا لآدم فسجدوا "[16]

إذن الإســـلام يجعل الإنسان في أعلى مراتب المخلوقات وخليفة الله على الأرض. لكن بالمقابـــل أمـــره بأن يعمل ما فيه خير للناس والقيام بالعمل الصالح. أن يؤمن بالله ولا يفســـد في الأرض، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. [17]

حسب ضوابط أخلاقية معلنة في القرآن. فيقدر النعم والتفضيل الذي منحه إياه والنعمة التي آتاها إياه. كان أجره، بطاعته وتقواه، عظيما.

وبالتالي فإن الثواب والعقاب يكون بقدر الطاعة والتقوى.فمن عمل صالحا وأكثر منه، فله الثواب ونعيم الجنة ومن كان مشركا،مفسدا ومخالفا للشرع يلاقي العقاب ومصيره عذاب النار.

وعلى هذا النحو تتشكل صورة العلاقة التي تربط العبد بربه. فكل عمل صالح، يقابله قدر من الأجور يدخرها المؤمن، لأن الإسلام يرتكز على مقولتين لخلاص المؤمن: التوكيد على وحدانية الله" ومحاسبة: ميزان الأعمال التي لا يفصل فيها إلا الله"[18]. وعلى هذه الشاكلة تتضح العلاقة الاقتصادية في علاقة البشر بالله، وكأن المؤمن مفروض عليه حساب أفعاله ومراكمة الأجور دون حدود، ليلقى سعادته في اليوم الآخر.

"ونضع الموازين القسط ليوم القيامة"[19]. وهنا يظهر لنا الطابع الكمي للأفعال إذ يوازن شرها بخيرها.إذ أن لكل مؤمن ماسعى يحاسب بأعماله. "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ"[20]

المحاسبة والحساب[21]:

إن محاسبة الأفعال في الإسلام كما سبق وأن أوضحنا تندرج ضمن علاقة دائن وهو الله ومستدين وهو العبد المؤمن. فالدائن خلق الإنسان وسخر له هذا العالم وبالمقابل فرض عليه طاعته وتقواه بالانضواء تحت تعاليمه والتي جاءت بسجل للأعمال السيئة كما أوردناها سابقا وهي الكبائر التي طلب من المؤمنين اجتنابها بكل الوسائل وحسابها حسابا معدودا، ومن جهة أخرى جعل لكل عمل حسن أجرا يقابله ويحلل الغزالي في "الإحياء"، المحاسبة وكأنها علاقة تجارية بين عقل العبد ونفسه، وسنرى فيما بعد كيف تنطبق الفكرة على علاقة العبد بربه يقول الغزالي:

"اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات[22] المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطالبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها (...) وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة وعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويسخرها فيما يزكيها، كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله كما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح فيحتاج أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه أو يحاسبه رابعا، فكذلك العقل يحتاج إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة (...) ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء لما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى".[23] يوجز هذا النص علاقة العقل بالنفس. فالعقل هو العارف والمدرك للشرائع والقواعد الدينية، يراقب النفس التي هي بمثابة الشريك في التجارة يتشارط معها على أن لا تقرب الحرام والسيئات، على أن تدخر أقصى الحسنات، لكن النفس أمارة بالسوء فوجب عليه عندئذ محاسبتها وعقابها وفي العلاقة التجارية بين العقل والنفس، خدمة لعلاقة أوسع وهي علاقة العبد بربه. ويعتبر

الإسلام أن تدقيق الحساب "مع النفس أكثر من تدقيقه في أرباح الدنيا"[24].

ويتجلى عندئذ احتقار الإسلام لكل ما هو دنيوي، إن لم يكن في خدمة اليوم الآخر. فمطلوب من العقل التعامل مع النفس لترشيدها للطريق السليم، طريق الإيمان بالله وطاعته سلوكا ومعاملة باجتناب الأعمال السيئة والسعي إلى الكسب، كسب الأعمال الحسنة وادخار الأجور التي تؤهل الفرد إلى نيل مرضاة الله وثوابه. وإن لم يأت بأكثرها فمصيره العقاب. فالمؤمن يعمل دائما في حياته وقد حضرت في وعيه الموت ويوم القيامة باستمرار. وفي عدة آيات نصادف عبارة السعي والكسب والمفاهيم أخلاقية، لكل امرئ ما سعى. "كل نفس ذائقة الموت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت"[25] ويتأكد تشابه السعي الاقتصادي والسعي الأخلاقي مثل ما أتي به الإسلام هو استعمال هذين المفهومين لمعالجة الظاهرة الاقتصادية عند الأشاعرة وبعض من فلاسفتهم وأشهرهم ابن خلدون في مقدمته[26].

في سورة المطففين يعد الله المؤمنين ومن عملوا الصالحات بنعيم الجنة. وينصح الناس على التنافس على الأعمال الصالحة، لكسب حسنات وأجور أكثر للفوز بالجنة.

"وفي ذلك فليتنافس المتنافسون"[27]. وهذه الدعوة توضح أكثر لزومية ادخار أكبر عدد ممكن من الحسنات من قبل العبد واستباق أمثاله في الاستكثار من الأجور لكسب مرضاة الله.

لذا فإن الإسلام بالإضافة إلى تأسيس قواعد شرعية تعاقب وتجازي الفرد تحت سلطة الدولة، المجتمع، والجماعة فإنه يحرص على تنشئة الفرد بحيث يختلج أيمانا بالله، والذي هو في الحقيقة، اختلاج لطاعة واحترام هذه القواعد باتجاه احترام النظام والحفاظ عليه[28] وإعادة إنتاجه.

فالمحاسبة تنعكس اجتماعيا وتتجلى عبر مؤسسات القمع، شرطة وحسبه وقواعد تشريعية، والتي ما هي إلا امتداد لشرع الله المنصوص عليه في القرآن والسنة. وأيديولوجية تستعمل فزع الموت، ونار جحيم العالم الآخر. كما تستعمل نعيم الجنة لتأسيس سيكولوجية اجتماعية، تجد ترجمتها عبر حرص الفرد المسلم على اجتناب كل ما حرم الله، وكل ما من شأنه تهديد توازن الجماعة، واهتزاز النظام "إذ

يتحدد سلوك المسلمين تجاه بعضهم البعض، وسلوكهم في الحياة الاجتماعية في شكل سلوك محلّل ومحرّم من قبل الإله، في سلوك مأجور عند الله وسلوك معاقب عليه من قبله"[29].

فالعبد من جهة، وكما ينص عليه الإسلام، مسلم[30] ومؤمن من جهة أخرى. مسلم يطبق القواعد الخمس ويتبع شرع الله وأوليائه القائمين بهذه السلطة على الأرض، ووجوب طاعتهم. قائمون بتسيير أمور الجماعة انطلاقا من النصوص الدينية، قرآنا وسنة. يطبقون الحد على كل فاعل معصية، ومن جهة فالإسلام الحقيقي وهو اختلاج الإيمان لدى العبد، يراقب على إثره نفسه المعرّضة للزلات والغواية الشيطانية، ولتجنب ذلك فإنه يتوجب عليه ذكر الله في كل وقت، والابتعاد عن سائر المحرمات. وإذن فإن النظام الأخلاقي الشرعي في الإسلام، يرتكز نظريا على هذا التوازن إسلام – إيمان، هذا التوازن الذي لم ير النور في الممارسة أبدا، حيث كانت له عواقب وخيمة في حياة وتاريخ المسلمين.

وإذا كانت المحاسبة بين العقل والنفس تتجسد في الممارسة الاجتماعية للمسلم، تجاه الله والجماعة (المؤسسة السياسية والشرعية). فإنها ترتكز على مخيال اجتماعي يمثّل أساس وجود الفرد المسلم، ألا وهو الحساب والعقاب في اليوم الآخر، يحدّد هذا المخيال مجمل هذه الممارسة التي تكلّمنا عنها، حيث يجمع الله الناس يوم القيامة للمحاسبة، يحاسبهم على أعمالهم "وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى"[31]. كل فرد تفتح كتبه ليحاسب على ما سجل له من أعمال سيئة كانت أم حسنة والمجازاة على ذلك رتب ودرجات كل حسب عظمة أو صغر عمله، أكان صالحا أم سيئا، وتتضح العلاقة التجارية بين العبد والإله عبر الموازين.

توزن الكتب[32] وحسب رجحان الكفة يكون الثواب أو العقاب فمن مالت كفة حسناته على حساب كفة السيئات كان "سعيدا"، أي استحق الثواب، وإن كان عكس ذلك فإنه يستحق العقاب "فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية" بمعنى أن مصيره عذاب النار واختلف الفقهاء وعلماء الكلام والأئمة في معنى الحساب فهل من السيئات أكثر وحسنات أقل يدخل النار ومن أكثر من الحسنات على حساب السيئات يدخل الجنة.

يقول الغزالي: "فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق (فرقة) ليس لهم حسنة (...) تبتلعهن النار وينادي عليهم (شقاوة) لا سعادة بعدها (وقسم آخر) لا سيئة لهم (...) يسرحون إلى الجنة، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم بمن لم تشغلهم تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله (...) ويبقى قسم ثالث هم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفي عليهم وليس على الله أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ولكن يأبى الله ألا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب"[33] ويواصل بعد ذلك على أنه يراعي إلى أي جهة مالت الكفة أمن جهة الحسنات أم من جهة السيئات ولكل جهة حسابها وجزاؤها ثواب إذا كانت للحسنات وعقاب للسيئات.

يقول بهذا الخصوص الإمام أبي يعلى الحنبلي "الله تعالى يضع ميزانا يوم القيامة توزن به الصحائف التي فيها أعمال العباد مكتوبة وله كفتان إحداهما للحسنات وهي تهوى إلى الجنة والأخرى للسيئات وهي تهوى إلى النار ولسان يكلمه ويخبره عما تزن به الحسنات ويجعل رجحان طاعاته علامة على أنه من أهل الجنة، وخفقها علامة على شقاوته".[34]

وإذا كان كل من الغزالي وأبي يعلى الحنبلي وغيرهم من الأئمة يقتصرون في شرح الحساب على فكرة الميزان المستوحاة من النص القرآني الصريح، الذي ذكرناه سابقا، ومن الأحاديث النبوية، فإن بعضهم وخاصة علماء الكلام المعتزلي أن يقول القاضي عبد الجبار: "أن الحسنات والسيئات هي الأعمال، وقد نقضت ولا يصح فيها إعادة ولو صح فيها ذلك أن الله تعالى زكاها لما صح أن توزن، فقال لأجل ذلك أن الله تعالى زكاها لما صح أن توزن ،فقال لأجل ذلك أن الله تعالى ذكره وأراد به العدل (يقصد به الميزان والوزن)"[35] لما كان الميزان طريقا لمعرفة العدل،وهذا لا يمنع من إثباتها وإنما يمنع من دون ذلك "[36] ودائما حول مسألة رجحان الكفة أ كان من جهة الحسنات أو السيئات ويكون على إثر ذلك العقاب أو الثواب ويواصل "ليس في ذلك خبر قاطع فيجوز أن يجعل علامة كفة الحسنات الضوء، وعلامة كفة السيئات الظلمة وقد يجوز غير ذلك من العلامات ".[37]

ومن المعتزلة أيضا من يجري عمليات حسابية بالناقص والزائد وحاصل هذه العمليات هو الذي يقرر مصير العبد. وأهم ما جاء في

هذا الشأن هوا لجدل الذي دار بين علي الجبائي وابنه أبو هاشم حول تقييم العقاب والثواب، حيث أن مقادير الثواب تسقط من مقادير العقاب وأتى على لسان أبا علي الجبائي ما يلي:

"إذا قام الإنسان مثلا بعمل صالح يستحق عليه 10 نقاط من الثواب ويقوم بعمل سيئ يستحق عليه 20 نقطة عقابا فإنه يعود إلى الله وحده أن يسقط العشر نقاط ثوابا من العشرين نقطة عقابا حيث لا يبقى للعبد سوى 10 نقاط عقابا"[38].

ويرد عليه ابنه أبو هاشم أنه ليس من صفات الله، وأنه ليس بوسعه إلا أن يسقط عليه العشر سيئات مقابل حسناته فلا يبقى لديه إلا عشرا من العقاب"[39].

فإذا كانا لا يتعارضان في مبدأ حساب الحسنات والسيئات فإنهما فقط لا يتفقان على مشيئة الله في ذلك، فإذا كان أبو علي يتركها إلى مشيئة الله فإن ابنه وثقة منه في رحمة الله وعدم اتصافه بالظلم، فإن من وسع الله إلا أن يحسب العشر حسنات باتجاه إنقاص ما يقابلها من السيئات العشرين لكي لا يبقى منها إلا عشرة وعلى العموم، يتجلى عبر هذا الرأي ميول المعتزلة نحو تأسيس حساب رياضي حقيقي، للأفعال يعتمد العقل. وحسب الأعمال ودرجاتها وما ادخره العباد من حسنات وسيئات، يكون ثوابهم وعقابهم بمقادير ودرجات. وكذلك فالجنة درجات والنار درجات، وكل يسكن هذه الدرجات بحسب أعماله.

ـ الجنة والنار ودرجاتهما:[40]

منطق الاستحقاق الذي نحن بصدد الكلام عنه يدخل، حتى في ترتيبات سكنى الجنة والنار، يقول الغزالي " ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة وإهلاك الهالكين أما تحقيق بجز الرقبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاينة وتعذيب المعذبين في الحقة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم، فتقسم كل رتبة من هذه الرتب درجات لا تحصى ولا تنحصر "فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك، ومن معذب مدة ومن ناج يحل بدار السلامة ومن فائز، والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن أوجنات المأوى أو جنات الفردوس والمعذبون إلى من يعذب قليلا وإلى من

يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر"[41]

وفي هذا الصدد استطعنا جمع بعض الأعمال التي تقابلها مستحقات من الأجور أو الآثام من القرآن وأحاديث النبي (**صلعم**).

نوع العمل	الأجر المستحق أو الإثم
– الدعاء إلى الضلال	– 1
– من قال "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير" في اليوم مائة مرة	– إثم واحد +1
–العمل الصالح في شهر رمضان	– ثواب واحد + 100 حسنة ناقص 100 حسنة
– صيام رمضان	–حسنة واحدة x 700 x 2
– من أفطر صائما	– صفر سيئات (تغفر كلها)
– المجاهد في سبيل الله	– أجر واحد
– من تصدق بناقة في سبيل الله	– أجرا عظيما و100 درجة في الجنة
– قوم غازية تغزو وتغنم	– 700 ناقة يوم القيام
– عبد أطاع سيده وأحسن عبادة الله	– 2/3 من أجورهم
– من اعتق جاريته وتزوجها	– أجر واحد x 2
	– أجر واحد x 2

[42]

الرتب	المستحقات من العقاب والثواب
-الرتبة الأولى	– هالك آيس من رحمة الله، جاحد مكذب بالله الدرك الأسفل من النار وآخر من يخرج منها بعد سبعة آلاف سنة.
-الرتبة الثانية	– مؤمن قصر في الوفاء بمقتضياته يتفاوت مكوثه بالنار من اليوم، الأسبوع، إلى سبعة آلاف سنة قد يصل حسابهم إلى المناقشة أو ضرب السياط.
– الرتبة الثالثة	– المصابون، المرضى، المعتوهون لم تصلهم الدعوة لسبب أو لآخر وكذلك الصبيان مكانهم بين الجنة والنار.
-الرتبة الرابعة	– الفائزون، العارفون اللا مقلدون والمقربون السابقون، الرسل، الأنبياء، الأولياء الشهداء مصيرهم الجنة بدون حساب والجنة منازل وكل منزلة تستحق بدرجة قرب العباد بأعمالهم إلى الله

وعلى حسب الأعمال يرتب الغزالي الناس يوم القيامة الناس درجات من معاقب إلى مثاب (بتصرف منا).

وانطلاقا من النص السابق للغزالي يمكننا رسم درجات الجنة:

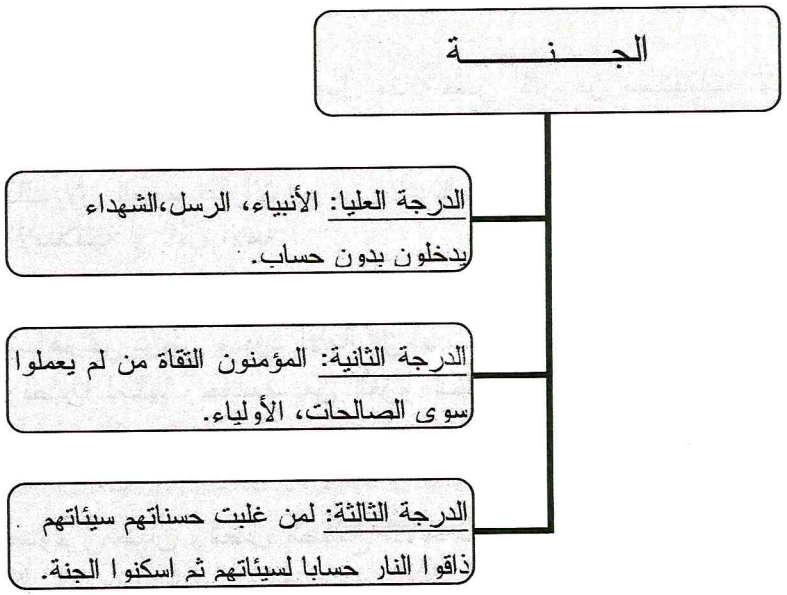

إن قراءة سوسيولوجية للوحين تظهر لنا العلاقة المباشرة بين هذه المحاسبة، والبعد السياسي في وظيفته المتمثلة في فرضه الانسجام في داخل الجماعة الإسلامية والحرص على توطيد النظام الاجتماعي الذي حددت النصوص قواعده عن طريق الإغراء بنعيم الجنة لكل من عمل صالحا، والوعيد بالنار لمن ارتكب السيئات.

يمكن انطلاقا من اللوح الأول تصنيف الأعمال حسب وظيفتها على المستويين الميكروسوسيولوجي والمستوى الماكروسوسيولوجي.

فالأعمال التي تشتغل وظيفتها على مستوى ماكرو سوسيولوجي يمكن تصنيفها انطلاقا من اللوح كما يلي:

1. من قال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في اليوم مائة مرة.
2. الجهاد في سبيل الله،التصدق بناقة للقتال في سبيل الله الغزو والغنيمة.
3. صوم رمضان، والعمل الصالح في رمضان.
4. أما الأعمال التي تعمل وظيفتها على مستوى ميكرو سوسيولوجي فهي:
1. الدعاء للهداية.
2. طاعة العبد لسيدة، وحسن عبادة الله،عتق الجارية وتزوجها.
3. إفطار الصائم.

المجموعة الأولى من الأعمال مثابة بقدر أكبر من مستحقات الأجور والثانية بقدر أقل.

ذلك لان المجموعة الأولى من الأعمال تتعلق مباشرة بوجود الجماعة الإسلامية أو لنقل الأمة:

- الجهاد في سبيل الله والمساعدة على الجهاد والغنيمة، أعمال تساهم في فرض وجود الأمة من حيث إن الجهاد هو توسيع لرقعتها ونصرا لمثلها وحمايتها من الغزو الخارجي"[43] التذكير اليومي أم ما يسمى بذكر لله الواحد هي إدماج وتأصيل متواصل للفرد في كنف الأمة، لأن هذه الأخيرة لا يشتد انسجامها إلا حول محور الله الواحد.

صوم رمضان والعمل الصالح أثناءه ف" صوم رمضان يربط رمزيا كل المؤمنين الذين يمتنعون عن الأكل والشرب بحسب توقيت متساو، إنه زيادة على ذلك دعامة للمساواتية الإسلامية التي تفرض الصوم

على الغني كما تفرضه على الفقير، الزكاة من جهتها تساهم في هذا التصور من الوحدة والانسجام لدى الأمة"[44]

أما المجموعة الثانية فتشتغل على مستوى ميكرو سوسيولوجي على مستوى العائلة والعلاقات الاجتماعية داخل الأمة، أو الجماعة الإسلامية وإن كانت وظيفتها مثل الأولى، هي دعم انسجام المجتمع الإسلامي وإعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية بين المسلمين.

فإفطار الصائم، والهداية، وطاعة العبد لسيده وعبادته لله، وعتق الجارية وتزوجها، هي تدعيم علاقة التعاون والتضامن بين أفراد الجماعة الإسلامية. والقضاء تدريجيا على العبودية، إذ لا حق لمسلم أن يجعل من أخيه عبدا وإذا اعتق رقبة فله حسنات، وإن تزوج جاريته فإنه ساهم في بناء المؤسسة القاعدية (الأسرة المسلمة). والتي تساهم بدورها في إعادة إنتاج القاعدة البيولوجية للأمة عن طريق الإنجاب[45]. فكل فرد يولد في كنف الأمة هو قوة باتجاه توسعها وتأكيدها.والجنة بتقسيماتها ماهي إلا انعكاس لحالة الأمة في الحياة الدنيا، فالذين يحتلون أعلى مراتب الأمة يحتلون أعلى درجات الجنة، رسل، أنبياء وشهداء.

من لم يعملوا إلا صالحا من أولياء فلهم أدنى الدرجات من الأنبياء والشهداء. والأكثرون من الناس من اختلطت حسناته بسيئاته وكانت حسناته أكثر وهم العامة من الخلائق، وفي كل درجة مراتب كذلك، فالأنبياء مثلا درجات "تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات"[46] وهكذا يرتسم نظام محاسبي يندمج فيه المؤمن كحافظ لكيان الجماعة الإسلامية عن طريق تطبيق مقولة النهي عن المنكر والأمر بالمعروف وإدخال نفسه في جدال يلعب فيه إيمانه دور المحاسب لكل أفعاله في سبيل الأعمال الحسنة واتقاء الأعمال السيئة. العزف عن كل مغريات الدنيا، طمعا في نعيم الجنة، يلقى فيه كل من حرم نفسه من مغريات الدنيا،كل ما حرم عليه في الدنيا[47]

خلاصة: نستنتج من خلال ما سبق، أن سلوك المسلم والمحدّد شرعاً في القرآن والحديث، يدخله في عملية حساب هدفها ترغيبه في العمل الصالح والمقدّر حسابيا كحساب التاجر في سعيه وتدخل النفس اللوامة كضابط لهذا السلوك الذي يترجم على المستوى الاجتماعي كضمان لانسجام الجماعة الاسلامية وولاء لأولي الأمر الذين يقدّمون أنفسهم

كحرّاس يضبطون السلوك من الخارج عن طريق المؤسّسة الرسمية القامعة عن طريق تطبيق الحد والمؤسّسة الأيديولوجية التي يقوم على سيرها الإمام والداعية والعالم الديني.

الهوامش:

1 – أشعيا،26،19

2–أيوب،19.26–27

3–إنجيل يوحنا،5.24– 30

4– الأحزاب، الآية .64

5– الأعراف ،الآية 50

6– الرعد،الآية35

7– الزمر، الآية71

8 – الجاثية، الآية24

9 – الذاريات، الآية56

10– لسان العرب ،ص1044

11 – La rousse Pluridictionnaire ،Latin en religion »،1983 Religare=relier »mettre en relation.

12 – العهد الجديد، رسالة يهودا، مصير المعلمين الكذبة، 21.

13 – ،علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، المستشرق جيب وعادل العوا ،منشورات عويدات،بيروت،1977،ص123

14 – سورة الملك، الآية15

15– سورة عبس،24–31

16– سورة البقرة ،الآية34

17– إن هذه المقولة "النهي عن المنكر والأمر بالمعروف "وجدت لنفسها تعبيرا مؤسساتيا وأصبحت تلعب دورا سياسيا وقمعيا حيث سميت هذه المؤسسة بالحسبة يقوم الخليفة بممارسة سلطته عبرها وهي شرطة يسمى رئيسها المحتسب"مكلف بمراقبة الأســـــواق،قمـــع

18–Dominique Sourdel،L'islam medieval ، p.u.f، Paris،P147، 1979

19– سورة الأنبياء، الآية47

20– سورة الأنبياء، الآية 47

21-في كتابه "ابن عربي"، يذهب آسين بلاتيوس إلى أن المحاسبة كانت تمارس في وسط البرهان المسيحيين إذ يقول "فهم لا ينكرون أن المسيحية لها الفضل في إعطاءها حق المواطن في حياة الزهد وتنظيمها باهتمام بالغ، وقد جمع الأب فتريجان كمية هائلة من المواضع المتعلقة بمحاسبة النفس، استخرجها من كتابات الرهبان والآباء الشرقية والغربية ولديهم جميعا – القديس بسيل، والقديس يوحنا كليما غوس، وكسيانوس يتجلى بوضوح أنهم حين يوصون بهذه الرياضة لا يفكرون في محاسبة النفس التي هي مدخل لا غنى غنه للاعتراف الديني وإنما يشيرون إلى عمل من أعمال التقوى اليومية، ففي كل ليلة قبل النوم، يجب على النفس أن تستعيد ذكر ما فعلته وما أهملته في يومها، حتى تحاسب نفسها أمام الله على ما ارتكبته من معاصي ونقائص وتعمل على تلافيها في المستقبل "كما أن البرهان المسيحيين على غرار الغزالي يشبهون محاسبة النفس" بحساب الأرباح والخسائر، والدخل والخرج، الذي يجب على كل تاجر ناجح أن يقوم به" ولكن مفهوم المحاسبة في الاسلام يتسع تطبيقه على كل أفراد الأمة ليغدو مؤسسة ذات طابع اجتماعي، سياسي واقتصادي أيضا رأى تجسيده التطبيقي في مؤسسة"الحسبة" كما سنرى فيما بعد. المصدر:، ابن عربي، آسين بلاتيوس، ترجمة عبد الرحمان بدوى، وكالة المطبوعات. دار القلم، الكويت، بيروت، 1979، ص157

22– قد تكون فكرة الحساب قريبة من الممارسة التجارية التي طبعت العرب قبل الإسلام، وصدره. وبالتالي فإن شرح التعاليم الدينية "للعامة" كان بالضرورة يشابه المسائل بالنماذج البسيطة، وفي مسألة علاقة الله بالعباد، مشابهة هذه العلاقة بالتجارة. كما شبه الغزالي علاقة العقل بالنفس بعلاقة التاجر بشريكه، على غرار من سبقه من رهبان المسيحية.

23ـ الغزالي الإحياء، ج4، ص.360

24 – نفس المرجع، نفس الصفحة.
25 – آل عمران 285.
27 – انظر مقدمة ابن خلدون والدراسة القيمة للفكر الاقتصادي الذي احتوتها كتاب: – النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، عبد المجيد مزيان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
28 – سورة المطففين،الآية 260.
CF. Louis Gardet، Les hommes de L'Islam، ،ed.Complexe، Bbruxelles،1984،notemment le chapitre intitulé 29 " communauté musulmane et son idealité "
30– محمد جعفر زين، التكنولوجيا والدولة، دار الفارابي– دار الهمداني، بيروت،1985، ص 49
31– كل المذهب السني مبني على هذه الثنائية–إيمان/إسلام– ظاهر/باطن،لكن المتصوفة نزعوا إلى الباطن وهو عدم الاقتصار على القراءة السطحية للنص القرآني والاكتفاء بظاهر الشريعة، بل البحث عن الباطن، إلى معرفة تتعدى ظاهر النص.
32– سورة النجم، الاية39
+ ــ فكرة الميزان يوم الحساب فكرة قديمة في الديانة المصرية القديمة.
33– أبو حامد الغزالي مرجع سابق ،ص473
34 – ابو يعلى الحنبلي، كتاب المعتمد في أصول الدين، دار المشرق،بيروت 1986، ص72
35 – ملاحظة من صاحب البحث.
36 – القاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال، مرجع مذكور ،ص204
37 – نفس المرجع، نفس الصفحة
38 – Abderrahman Badawi، Histoire de la philosophie musulmane ، VOL 1، librairie philosophique J. Vrin، Paris 1972 ، P194
39 – Ibidem
40– الثواب والعقاب فكرة ظهرت في الديانات المصرية القديمة لأوزر يس الإله أوزريس يحاسب الناس حسب أعمالهم وعلى اثر ذلك فهم مثابون إن كانوا محسنين، ومعاقبون إذا كانوا مفسدين.
41– أبو حامد الغزالي ج 4،ص 24–وعن فكرة كل حسنة لها جزاؤها من الجنة وكل سيئة لها جزاؤها من النار فان الغزالي يستند إلى حديث نبوي يقول (ص): " وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار" ويؤيده في ذلك الأشاعرة حيث يرون أن صاحب الحسنات وكثير من السيئات يدخل الجنة بعض الوقت بقدر حسناته ثم ينقل إلى النار مقابل سيئاته.
42– – المصادر :

القران الكريم.
صحيح مسلم.
إحياء علوم الدين،أبو حامد الغزالي مرجع سابق.

43 – Luis Gardet، L es hommes de l'islam، op.cit،p.72
44 – Marcel Boisard، l'humanisme de l'islam ، op.cit،p.72
45 – حديث نبوي " تناسلوا تكاثروا حتى أباهي بكم الأمم"
46 – سورة البقرة، الآية 253
47 – يلقى الناس في الجنة حور العين منهن السبعين مقابل مجاهدة النفس على الزنا في الدنيا، ويجد وديانا من الخمر مقابل عزفه عنها في الدنيا كذلك.

العنف ضد المرأة أم العنف الزوجي : إشكالية المفهوم

الأستاذ: بكري عبد الحميد

جامعة سعيدة

تمهيد:

شهدت السنوات الأخيرة إهتماما مكثفا بقضية العنف ضد المرأة، فقد أصدرت الجمعية العامة للإمم المتحدة عام 1993 الإعلان للقضاء على، العنف ضد المرأة وقد تبنى هدا الإعلان تعريفا حدد بمقتضاه العنف ضد المرأة بأنه "أي فعل عنيف قائم على أساس، الجنس، ينجم عنه، أو يحتمل أن ينجم عنه، أذى أو معاناة جسيمة أو نفسية للمرأة، بما في ذلك التمهيد بإقتراف مثل هذا الفعل أو الإكراه أو الحرمان التعسفي من الحرية، سواء وقع ذلك في الحياة الخاصة أو العامة " ويظهر لنا من هذا التعريف الوارد في الإعلان على وجوب أن يشمل مفهوم العنف ضد المرأة لأنواع مختلفة للعنف، كالعنف الجسدي والنفسي والجنسي الذي يقع في الأسرة بما في ذلك الضرب المبرح، الإغتصاب في إطار الزوجية، الإساءة وغيرها من الإساءات المؤدية للمرأة، ويضاف إلى ذلك العنف المؤسسي الذي يقع في المؤسسات ومجالات العمل، كما يشمل أيضا العنف المجتمعي، الذي تتعرض له المرأة في علاقاتها الإجتماعية خارج حدود الأسرة في الطريق أو الشارع مثلا لخدش حيائها أو الإستخفاف بها أو إنتهاك حقوقها.

ورغم أن هذه الظاهرة أثارت إهتمام الجمهور العام (السياسي، أطياف المجتمع المدني، مختلف المؤسسات المجتمعية) كما إسترعت إنتباه الباحثين والمعالجين لهذه الظاهرة، إلا أنها موجودة منذ قديم الزمان، وبالتالي فهي لا تعتبر حديثة، وظهورها بإلحاح على السطح في الأونة الأخيرة جاء في سياق مد جديد من التيارات عدة من أهمها: المناداة بحقوق الإنسان بوجه عام، وبحقوق المرأة بوجه خاص، والمناداة بمناهضة التعصب والميز بكافة أشكاله، والمطالبة بالمساواة بكافة أشكالها لفئات من المجتمع من بينها النساء.

ومن هنا نرى أن السياق الإجتماعي والتاريخي الذي تحدث ظاهرة العنف عموما والعنف الزوجي أو العنف ضد المرأة يؤثر في تحديدنا لمفهوم العنف، ومحددات المعرفية والنظرية التي تؤثر على هذه

الظاهرة. وربما هذا مايشرح عدم تحديد مفهوم العنف عموما زيادة إلى تداخله مع بعض المفاهيم الهامة الأخرى مثل العدوان، العدوانية، القهر، الإكراه.

عنف أم عدوان :

إن المستأنس بالقراءات والأبحاث التي إهتمت بهذه الظاهرة يرى بأنه تستخدم مفاهيم بشكل **Agressivité** والعدوانية **Violence** والعنف **Agression** العدوان فضفاض وغير دقيق، والعدوان مصطلح يستخدم للتعبير عن الكثير من الأفعال التي تتضمن الهجوم على الأخرين والعدائية **Arthur**)، (**reber** وقد عرف Buss العدوان على أنه " الإستجابة التي تمثل مثير مؤذ لكائن أخر"[1]

وقدم Baron في عام 1994 تعريف موجز يراعي بعض الإعتبارات (النية من قبل القائم بالعدوان، وعدم تقبل العدوان من قبل الواقع عليه الفعل) حيث إقترح أن يستخدم مصطلح العدوان لوصف "أي شكل من أشكال السلوك يوجه بهدف إلحاق الأذى أو جرح كائن حي أخر تكون لديه الدوافع لتجنب مثل تلك المعاملة "**(2)** ومن جهة نظر التحليل النفسي يعتبر العدوان " كل فعل يتسم بالعداء تجاه الموضوع أو الذات بهدف لهدم والتدمير"**(3)** ويرى أحمد زكي بدوي أن العدوان " سلوك يرمي إلى إيذاء الغير أو الذات، أما ما يحل محلهما"[4]

وقد كشفت مراجعة التراث النظري أن التميز بين مصطلحي العدوان والعنف مفتقد حتى الأن فغالبا ما يستخدم العنف مرادفا للعدوان حتى لدى من يحاولون التمييز بينهما.

ومن المحاولات التي أجريت للتمييز بين العدوان والعنف ما قامت به **Barbara krake** التي إعتبرت مصطلحالعنف نمط عرقي **Subtype** من أنماط العدوان، ويقصد به أشكال العدوان المادي **(Physical)** نترجمه بمادي وليس بمعنى بدني فقط) الشديد. وتعرف العنف على أنه "توجيه القوة المفرطة إلى الأفراد أو الممتلكات لأغراض التدمير أو العقاب أو السيطرة"[5] ويرى **Jeff hearn** أن تعريف العنف يختلف وفقا لإختلاف الثقافات وإختلاف السياق التاريخي، فالعنف مصطلح يتضمن أفعال وعلاقات إجتماعية متعددة، ويحمل معان مختلفة لمجتمعات مختلفة.[6]

كما يرى أن عملية تعريف العنف تتضمن أبعاد قصيرة المدى ومحلية، كما تتضمن أبعاد طويلة المدى تاريخية وكونية. وبناءا على دلك، من

الضروري تناول العنف بنظرة شمولية عند محاولة القيام بعملية تعريفه. وقد يستخدم مصطلح العنف لكي يعني الإيذاء، أو العنف المادي أو مجرد شكل من أشكال العنف المادي (مثل العنف البدني)، ونظرا لإستخدام مصطلح العنف بأكثر من معنى، يمكن أن نقول أنه يمكن أن يستخدم مفهوم العنف بدقة كما يمكن أن يستخدم بشكل غامض ومن هنا فلا يمكن أن نعتبر مفهوم مفهوم" عنف" إشارة إلى شيء واحد، بل يشير إلى مجموعة من الخبرات المختلفة في الناس. ونرى من هنا أن صعوبة تحديد مفهوم العنف لكونه مكون من عوامل تاريخية واجتماعية وثقافية فالجانب الثقافي والتاريخي يؤثر على الطريقة التي نعرف بها العنف من خلال المؤسسات التي يتم فيها، ويقرر فيلوف أن مصطلح العنف يستخدم للإشارة إلى الأفعال التي تتضمن التهديد ب أو ممارسة الوسائل البدنية للتعبير عن العدوان، كما قد يستخدم العنف لإيذاء مع المستهدف بدنيا أو نفسيا أو ماديا، (طبعا مع أشكال العدوان الأخرى) ويشير إلى عدم ضرورة أن تتناسب نتيجة الإيذاء مع الأسلوب الذي أستخدم للتعبير عن العدوان، فعلى سبيل المثال يسبب العنف اللفظي ألما في بعض الحالات يفوق ما يسببه العنف البدني بكثير[7]. ويقدم **Jeff hearn** [8] بعض العناصر التي تساعد في تعريف العنف وهي:

- العنصر الذي يتضمن إستخدام القوة البدنية أو غيرها، من قبل معتدي أو جماعة من المعتدين
- عنصر النية في إلحاق الأذى
- عنصر إدراك المعتدى عليه بوقوع أدى أو انتهاك.
- عنصر إدراك بعض الأفعال أو الأنشطة أو الأحداث بوصفها " عنيفة " من قبل طرف ثالث، قد تكون على سبيل المثال سلطة قانونية.

(**jeff hearn**) نعود إلى السؤال الابتدائي، ما الفرق بين مصطلح العنف ومصطلح العدوان ؟ لا يمكن الإجابة على هذا السؤال إلا في ضوء مظاهر، ودوافع والتفسيرات لهده الظاهرة السلوكية التي توصف بأنها سلوك عدواني – عنيف – مظاهر السلوك العنيف (العدواني). تتعدد أوصاف وتصنيفات مظاهر السلوك العنيف، وبطبيعة الحال، إنعكس الإستخدام المتبادل – من عدمه – لمصطلحي العنف والعدوان على تلك الأوصاف والتصنيفات، ومن أكثر التصنيفات شمولية للسلوك العنيف (العدواني) تصنيف **Barabara kake**. وفقا للجوانب التالية(**9**):

من حيث شكل الإستجابة لفظي مقابل مادي	Response modality Verbal vs.physical
من حيث كيفية الإستجابة: الفعل مقابل الفشل في الفعل	Response Quality To act action vs.failure
من حيث المباشر: مباشر مقابل غير مباشر	Imediacy Directe vs.Indirecte
من حيث إمكانية الرؤية: صريح مقابل ضمني	Visibility Overt vs.Covert
من حيث الدافع المحرض: لم يسبقه إستفزاز مقابل ثأري	Instigation Unprovoked vs.Retaliative
من حيث إتجاه الهدف: عدائي مقابل وسيلي	Gool direction Hostile vs.Instrumental
من حيث نوع الضرر:مادي (أوبدني)مقابل نفسي	Type of danger Physical vs. Psychological
من حيث طول مدة العواقب: مؤقتة مقابل طويلة المدى	Ration pf consequences Transient vs. Long term

من حيث الوحدات الإجتماعية: المتضمنة أفراد مقابل جماعات	Social units involved Individuals vs. Groups

كما تصنف كل خاصية من أشكال العنف يطلق عليه العنف البنيوي **structural violence** ويشير إلى الظروف المجتمعية التي تنطوي على عواقب ضارة لجماعة اجتماعية معينة. ويظهر العنف البنيوي في الأنظمة الإجتماعية التي يوجد بها ظلم وعدم مساواة ومثال ذلك، الظروف التي تركز القوة في أيدي الرجال مما يجعل النساء يفتقدن الحماية من الإنتهاكات لحقوقهن[10] ويصنف **jeff hearn** [11]العنف إلى نوعين، عنف بين شخصي **interpersonnel** وهو العنف المباشر الموجه من فرد لأخر في مواقف متعددة. والنوع الأخر من العنف البنائي**structural** الذي يتخذ عدة معاني منها:

- نمط فردي وبين شخصي مثل الإنماط المجتمعية من العنف الموجه من الأزواج ضد الزوجات
- الأفعال والإجراءات العنيفة التي تقوم بها المؤسسات الإجتماعية مثل الدولة ويشار إلى هدا النمط على أنه العنف المؤسساتي.
- التأثيرات العنيفة التي تسببها عدم المساواة متضمنة ما يحدث على مستوى العالم، مثل ظهور المجاعات والفقر نتيجة لعدم المساواة في توزيع الثروات على مستوى العالم.
- التأثيرات العنيفة للحروب، والحروب الأهلية، والعنف بين الجماعات الإجتماعية المتصارعة
- العلاقات الإجتماعية البنائية للمؤسسات القائمة تاريخيا على أسس عنيفة مثال المؤسسات الرأسمالية ويضع خليل أبو قورة تصنيفا يقسم العنف (العدوان)إلى ثلاثة أنواع هي:
- عنف إجتماعي (مضاد للمجتمع)**anti-social** يتضمن الأفعال التي يؤذي بها الفرد نفسه، أو الأخرين، وتكون مضرة بمصلحة المجتمع.
- عنف إلزام، تتضمن الأفعال التي يقوم بها الفرد للدفاع عن النفس أو المجتمع. وتكون لصالح المجتمع.

- عنف مباح، وهي الأفعال والإجراءات التي تتخذ لمعاقبة مرتكب الجريمة أو مخالفة للقانون أو الشرع أو العرف (القصاص) [12].

دوافع وأسباب السلوك العنيف (العدوانى):

إجتهد الباحثون في تحديد دوافع وأسباب السلوك العنيف، ومنهم من حاول إرجاعها إلى عنصر واحد، ومنهم من أرجعها إلى عدة عناصر مثل **felson** [13] الذي لخصها في ثلاثة نقاط :

السعي للسيطرة على سلوك المستهدف

- تحقيق الجزاء أو العدالة (ردع الظلم)
- تدعيم أو الدفاع عن تصور الذات وتقدم ماتاني وزملاؤه تنميط وظيفي للعنف ووفقا التنميط يمكن أن يحقق العنف وظيفة من وظائف التالية :
- تغيير مواقف بغيضة أو الهروب منها.
- الحصول على تدعيم إيجابي، مثل تحقيق هدف معين.
- فض الصراع.
- إكتساب الإحترام.

ويفترض روبن أن الأفعال العنيفة يحركها واحد من الدوافع الأتية:

- الرغبة في تخويف الإخرين أو دفعهم للهروب.
- الميل لمواصلة تحقيق الإفكار أو الإهتمامات[14]

ويعرض **berkowitz** مفهوم الدافع الغريزي للعنف عند فريد ولورنز، وقد أصبح من الشائع في التراث السيكولوجي، تصور فريد الذي إفترض أن غريزة الموت وغريزة الحياة تفسران السبب وراء الأفعال الإنسانية. وإتفق كونراد لورنز الحاصل على جائزة نوبل عن دراساته لسلوك الحيوانات مع التصور الفردي حيث أكد على وهو دافع طبيعي للعنف لدى البشر، وأصر على أن السلوك في معظمه نابع من مصادر داخلية وليس رد فعل للظروف البيئية [15]

ولم تقتصر محاولات العلماء على البحث عن دوافع وأسباب العنف على العوامل النفسية أو الإجتماعية، بل إمتدت لتشمل الجوانب البيولوجية، وبصفة خاصة تأثير الهرمونات. وفي هدا الصدد أظهرت بعض الدراسات التي اهتمت بجدور العنف إلى وجود إرتباط بين مستوى الهرمونات الذكرية * والسلوك العدواني، وينطبق هدا على الذكور والإناث [16]

تفسيرات السلوك العنيف:

يشير مارشال **Marshal** إلى وجود عدة نظريات تفسير الأسباب التي تجعل الفرد يسلك سلوكا عنيفا (عدوانيا). ويبدأ الطريق مبكرا مع إعادة توماس هوبز أن الإنسان عنيف بطبعه وأن البشر إحتاجوا لجهود كبيرة حتى تجنبوا الحالة التي يكون فيها الكل في حالة حرب مع الأخرين (وقد تم من خلال العقد الإجتماعي المفترض خضوع الناس إليه)[17]

ولم يكن هوبز الوحيد في هدا الإدعاء بل شاركه العديد من علماء النفس والاجتماع حيث تؤكد بعض نظريات علم النفس أن العدوان يتم تحاشيه من خلال جهود مضنية تتم في إطار عمليات التربية والتنشئة الإجتماعية تدعمها إجراءات الضبط الإجتماعية. ومعنى هدا أن الحضارة والتقدم لايكفيان في حد ذاتها لتهذيب السلوك العنيف لدى البشر، لدلك يحتاج الأمر لعمليات مستمرة من الثواب للسلوك إجتماعيا والعقاب للسلوك غير المقبول ومنه السلوك العدواني [18]

ويركز هيرن على تفسير عنف الرجال ضد معارفهم من النساء ويقدم عدة تفسيرات هي :

- التفسيرات البيولوجية، وهي ترتكز على الأنماط الهرمونية والعنف.
- التفسيرات السوسيولوجية التي تنظر للعنف في ضوء المكانة الإجتماعية والدفاع عنها.

- التفسيرات البيولوجية، وهي ترتكز على الأنماط الهرمونية والعنف.
- التفسيرات السوسيولوجية التي تنظر للعنف في ضوء المكانة الإجتماعية والدفاع عنها.

* الهرمونات الذكرية هي الهرمونات المسؤولة عن ظهور الخصائص الجنسية للذكور وهي تفرز بشكل أساسي من الخصيتين والقشرة الخارجية للخدة الكظرية.

- التفسيرات السيكولوجية التي تبرز دور الإسقاط والإبدال.

- تفسيرات الإنتروبولوجيا والتي تركز على مفاهيم القائمة على العمليات: البينشخصية، والمؤسساتية والبنائية وتندرج تحت هده العمليات بعض القضايا مثل الفقر الخضوع، الإغتراب، الثقافة الفرعي ووفقا لنظريات تواصل الأجيال **intergenerational theories** يسبب إنتقال مظاهر السلوك والإتجاهات والمدركات مشاكل في عملية التواصل المنتج لجيل في الأسرة. ويرى أصحاب تلك النظريات أن الجناة والضحايا على السواء يكتسبون مفهوم ذات سلبي ويكون لديهم قصورا في أنماط التواصل ينتج من التعلم الإجتماعي من أسرهم التي تربوا فيها أو من السياق الإجتماعي الذي يتغاضى عن العنف [19].

وبالنسبة لنظريات المنظومة الأسرية **family systems theories** يتحمل ضحايا العنف الأسري أو الزوجي بعض المسؤولية فيما يقع عليهم من إيذاء، لأنهم يشتركون مع المعتدين في أنماط التفاعل الذي يتضمن العنف مما يسهل ويديم هدا العنف. ويعتبر العنف وفقا لهده النظريات أعراض **sympton** وأساس بنية الأزواج لضرورة البحث على علاج المشاكل البنائية العميقة التي تهدد علاقاتهم [20] وكخلاصة لعرض مختلف النظريات، ونقول بأنه يوجد شبه إجتماع بينها على أن العنف والعدوانية شيء سلبي وسلوك لا يفيد لا صحة الفرد النفسية ولا يفيد المجتمع.

الدراسات السابقة:

مثلما هو من الصعب تحديد تعريف دقيق للعنف والعدوان، ليس من السهل حصر الدراسات التي أجريت على العنف الأسري بوجه عام، والعنف المتبادل بين الأزواج بوجه خاص، ورغم هدا يمكن عرض نماذج من هدف الدراسات التي أجريت في هدا المجال. وبعض من هده الدراسات إهتم بمسألة العنف الأسري والعنف بين الزوجين وتأثير دالك على الأبناء أثناء الأحداث العنيفة وبعدها ومن هده الدراسات دراسة روس الذي قام بفحص المقابلات التي أجريت مع الأزواج الأمريكيين في إطار "المسح القومي للعنف السري "لمعرفة تأثير العنف بين الوالدين على الأبناء. وأظهرت نتائج هده الدراسة أن العنف بين الزوجين منبئ دال على العنف، البدني الموجه نحو الأبناء (الأطفال)، حيث إزدادت إحتمالية تعرض الإبن للعنف البدني من قبل الشريك العدواني بإزدياد مقدار العنف الذي أظهره هدا الشريك نحو الطرف الأخر وتنطبق هده النتيجة بشكل أكبر على الأزواج أكثر من إنطباقها على الزوجات[21]. ودهبت دراسة مارجولين وجورديز إلى أكثر من دلك

حيث بينت النتائج أن العنف الموجه من الأزواج ضد الزوجات يرتبط بسوء معاملة كل من الأب والأم للأولاد، وأظهرت نتائج بحث أخر أجرته مارجولين)أن الأزواج الدين أساءوا معاملة زوجاتهم كانوا أقل تعاطفا مع أولادهم، كما تأثرت الأمهات المعنفات أيضا حيث أظهرت عواطف سلبية تجاه أولادهم. ومن هنا نلاحظ أن هده الدراسات أظهرت تأثير التعرض للعنف الزوجي على البيئة السرية مما يخلق العديد من عوامل عدم الإستقرار الأسري[22]

وبينت دراسة موفيت وكاسبي أن الفقر والمستوى التعليمي المنخفض خلال، الطفولة والمراهقة تعتبر من عوامل التي تؤدي إلى ممارسة الدكور للعنف ضد الزوجات [23]

وتتفق نتائج دراسة قدمت للمعهد القومي للعدالة التابع لوزارة العدل الأمريكي قدمها بنسون وفوكس وقرين مع دراسة موفت وكابسي في خطورة العامل الإقتصادي (الفقر، والحرمان،. ..) ومكان الإقامة على العنف المنزلي، فقد كشفت النتائج عن أن العنف بين الأزواج يكون أكثر إنتشار في الأماكن المحرومة، وبصف خاصة لدى الزواج الدين يعانون من مشاكل إقتصادية. وتعتبر الزوجات الأكثر تعرضا للخطورة [24]) وما سبق من نتائج تتعلق بالفقر والمستوى التعليمي المنخفض يتفق مع نتائج بعض الدراسات العربية (في مصر ليلى عبد الوهاب 1992،عادل هويدي 2002 في سوريا رغداء الأحمد 1989) وفي دراسة أخرى لتحديد العوامل التي تؤدي لحدوث العنف الأسري كشفت نتائجه عن دور الإيذاء البدني في الطفولة والمراهقة في جعل الفرد ضحية للعنف الأسري في المستقبل. كما كشفت عن الوضع الخطير للنساء اللائي قمن بأفعال عنيفة بوصفهن جناة بسبب الاحتمال المتزايد لتعرضهن للعنف الشديد من قبل أزواجهن. وحاولت بعض الدراسات وضع أنماط لضحايا الأسري أو الأشخاص المعتدين في إطار العنف الأسري، ومن هده المحاولات دراسة شاز وأخرون التي قدمت نموذجا يصنف الأزواج إلى فئتي: النمط التفاعلي **Réactive** والنمط المبادر **Proactive**، ويعتمد على بعض الأبعاد وهي: الفاعلية والشخصية والعنف في الأسرة الأصلية للزوج. وأظهرت نتائج هده الدراسة أن النمط المبادر مقارنة بالنمط التفاعلي كان أكثر سيطرة وأقل غضبا أثناء التفاعل مع الزوجة خلال العشرة دقائق الأولى، وبعد مراجعة محاولة التنميط للأزواج الدين يوجهون العنف ضد زوجاتهم توصلت أمي هولزورت إلى ثلاث أنماط هي:

- نمط المعتدين في نطاق الأسرة فقط
- نمط المعتدين بوجه عام.
- نمط المعتدين الدين يعانون من إضطرابات في الشخصية [25]

وقامت كاسكاردي وأخرون بدراسة مقارنة بثلاث مجموعات من النساء: مجموعة تعرضت للإيذاء، مجموعة على خلاف مع أزواجهم، ومجموعة ثالثة لم تتعرض للإيذاء.

أظهرت النتائج الزوجات اللائي تعرضن للإيذاء كن أكثر خوفا من أزواجهن وأعتبر أن أزواجهن أكثر ممارسة للإكراه والعنف والعدوان النفسي مقارنة بالمجموعتين الأخرتين. كما أظهرت النتائج أن المجموعة التي تعرضت للإيذاء، والمجموعة التي على خلاف مع أزواجهن يعانين من معادلات مرتفعة من الإيذاء الوجداني في الطفولة [26]

أما في البيئة العربية، بينت النتائج أن الذكور أكثر ممارسة للعنف ضد الزوجات (دراسة ناهد رمزي وعادل سلطان، 2002 سميحة نصر،2002).

كما أظهرت فروقا بين صغار السن وكبار السن، كان صغار السن أكثر عنفا ضد الشريك، وبين المستويات التعليمية المختلفة، حيث يقل الإتجاه نحو العنف كلما إرتفع مستوى التعليم.

وفيما يتعلق بمتغير الريف – الحضر تباينت النتائج التي قدمتها نفس الباحثة في دراستين نشرتا في نفس السنة، ولكن بإستخدام أسلوبين مختلفين لجمع البيانات، وتحليل محتوى الجرائم التي نشرت بالصحف والأسلوب الأخر هو إستمارة جمع البيانات، حيث قررت في الدراسة الأولى أن العنف أكثر إنتشارا في الحضر ولكنها بالأسلوب الإمبريقي ثبت العكس. وتبينت دراسة أخرى أن أغلب مرتكبي "جرائم" الضرب والجرح كن من الريفيات.

كما أجريت دراسة تتبعية إهتمت بفحص مدى تزايد العنف المنزلي (بين الأزواج) أو تناقصه،ومدى التغير الذي قد يطرأ على شكله مع الزمن، ومن هده الدراسات، الدراسة التتبعية للعنف الزوجي التي إستمرت ثلاث سنوات، ا ليكويجلي وليوناردو[27].

وتم فحص معدلات ترك الأزواج العدوانيين للسلوك العدواني على مدى ثلاث سنوات الأولى من الزواج، أظهرت النتائج أن ربع هؤلاء الأزواج العدوانيين توقفوا عن هذا السلوك خلال العامين الثاني والثالث من

الزواج. وأختلفت معدلات التوقف عن العدوان تبعا الإختلاف نمط العدوان، حيث توقف الذين قاموا بعتداءات نادرة في السنة الأولى عن العدوان في السنتين الثانيتين، في حين إستمر أغلب الذين قاموا بأفعال عدوانية شديدة في السنة الأولى عدوانية بالإستمرار في نفس السلوك خلال السنتين التاليتين[28]

وفي دراسة تبعية أخرى – لمدة عشرة سنوات - عن مسار العدواني البدني والنفسي بين الأزواج قام بها فريتز وأولياري، وأظهرت النتائج عدم وجود تغيرات دالة في أنماط العدوان النفسي، في حين توجد دلائل على تناقض معدل العدوان البدني مع تقدم العمر ولقد قام بعض الباحثين ،بمراجعة الأعمال التي أنجزت حول العنف بين الزوجين والعنف الأسري بشكل نقدي، وأهم ما قدمته من نتائج وإستخلاصات نظرية ومن الدراسات النقدية دراسة أولياري الذي ينتقد ضعف الإهتمام بالإيذاء النفسي مقارنة بالإيذاء البدني، ويرجع ذلك لعدة أسباب منها:

- صعوبة التوصل لتعريف للإيذاء النفسي متفق عليه.

- إفتراض أن الإيذاء البدني يسبب إيذاء نفسي.

وهو يرى أنه عادة ما يسبق الإيذاء النفسي الإيذاء البدني، لدلك فإن علاج الإيدلء النفسي فور ظهوره يعمل على الوقاية من الإيذاء البدني.

وأجرى رولنج دراسة ركز فيها على مراجعة البحوث السابقة حول العنف وحدد فيها أهم نتائج إنتهت إليها تلك البحوث، وكان من بينها تورط النساء أيضا في العنف ضد الأزواج، ينشأ العنف بين الأزواج من عدم الرضا عن العلاقة الزوجية، وجود أنماط مختلفة من الرجال الدين يمارسون العنف ضد الزوجات، ووجوب التركيز على العنف اللفظي والعنف النفسي والإهمال بنفس درجة الإهتمام بالعنف البدني.

المـــــــراجـــــع :

1- جبر محمد جبر، عادل هويدي، دوافع مستويات ممارسات العنف في ضوء بعض الخصائص الديمغرافية، المجلة المصرية للدراسات النفسية، المجلد 13، العدد 04 ص 75-159، .2002
2- المرجع نفسه.
3- المرجع نفسه.
4- المرجع نفسه.
5- المرجع نفسه.
6- خليل قطب أبو قورة، سيكولوجية العدوان، الهيئة العامة للثقافة، القاهرة، 1996.
7- المرجع نفسه.
8- المرجع نفسه.
9- المرجع نفسه
10- المرجع نفسه.
11- المرجع نفسه.
12- المرجع نفسه.
13- سميحة نصر ،العنف في الحياة اليومية، المجلة الجنائية القومية، المجلد 46، العدد 02، القاهرة، ص75- 117، 2003.
14- المرجع نفسه.
15- المرجع نفسه.
16- المرجع نفسه.
17- عادل الشرجي، العنف العائبي ضد المرأة، المؤتمر الوطني لمناهضة العنف ضد المرأة، ص1-16، .2004
18- المرجع نفسه.
19- المرجع نفسه.
20- المرجع نفسه.
21- ليلى عبد الوهاب، العنف الأسري، دار المدى للثقافة، بيروت، 1996.
22- المرجع نفسه.
23- المرجع نفسه.
24- ليلى عبد الوهاب، سوسيولوجية الجريمة عند المرأة، مجلة مركز البحوث العربية، ص77-87، القاهرة، 1992.
25- المرجع نفسه.
26- المرجع نفسه
27- ناهد رمزي وعادل سلطان، بعض المتغيرات الإجتماعية والنفسية المحددة لإتجاهات الأفراد نحو العنف ضد المرأة، المركز القومي للبحوث الإجتماعية، القاهرة، 2002.
28- المرجع نفسه.